مقدمة إلى كافكا

تأليف : فيليب راف

ترجمة : ماهر البطوطي

ويرتبط فرانز كافكا اليوم في الأذهان الأدبية ارتباطا شديدا بأسماء مثل جيمس جويس ومارسيل بروست وييتس وريلكه واليوت ، وهم من أطلق عليهم بحق « الأبطال المقدسين الذين لا ينتمون ـ للنزعة الخلاقة الحديثة » .

وهو ينفرد بينهم بأنه الوحيد الذي لم يتمتع بنجاح شخصي ذي أهمية أبان حياته ، لأنه حجب قصصه الطويلة عن النشر ، ولهذا لم تعد شهرته حلقة صغيرة من الكتاب الألمان ، ولم تأته الشهرة العالمية إلا في العقدين الأخيرين ، بعد وفاته .

وأول مرة ظهرت فيها ترجمة لاحدى رواياته ـ القلعة ـ كانت في عام ١٩٣٠ ، بعد أن مضى على وفاته ست سنوات ، والقلعة رواية تسطع عاليا في سماء الأدب الكافكي ، وحين ظهرت في البداية لم يتمكن من سبر غور قيمتها الحقيقية سوى عدد قليل من القراء ، بل أنه حين ظهرت « المحاكمة » في عام ١٩٣٧ ، لم يكن المعنى الذي قدمه كافكا والدوافع الأساسية عنده هي التي أثارت الاهتمام بقدر ما أثاره الالغاز الظاهر في كتاباته - وقد أدهشت رواياته القراء ، غير أنهم لم يقتنعوا الاقتناع الكافي بأهميتها ، ومنذ هذا الوقت ، جرت قوة الحس التي تمثل سمة قوية من سماته ، جرت في شريان الدماء الذي يتخلل أدب القرن العشرين ، وقد أصبح كافكا موضوعا لدراسات نقدية عديدة في كثير من اللغات ، وفي جميع الأنحاء ، اتخذ الكتاب الشبان رقيقو الحس ، الذين شعروا بالحالة المتجمدة للأساليب الروائية السائدة والذين كانوا جاهدين في البحث عن تجديدات خلاقة ، اتخذوا مثاله الذي اتبعه مأخذا جديا .

ولم يعد هناك شك في منزلة كافكا كفنان على النهج الميتافيزيقي الذي يهتم بالتركيب النهائي للوجود الانساني أو في أصالته الفائقة كمجدد في الأسلوب الخلاق ، ومثل « ريلكه » في « مرثيات دوينو » يلقى كافكا بالسؤال الخالد « ما هو الحقيقي في هذا العالم ؟ » .

وكافكا سيد من سادة السرد القصصي ، أسلوبه دقيق ذو تحفظ ساحر ، وهو يجمع في رواياته بين الحقيقي وغير الحقيقي ـ بين ذاتية المضمون الخالصة وأشكال غاية في الموضوعية ، بين صورة صحيحة ودودة عن العالم الخارجي والتحلل الحلمي لهذا العالم .

وعن طريق توحيد هذه العناصر المتضادة تمكن كافكا من تحقيق ملامحات جوهرية جديدة لمصادر الكتابة النثرية ـ يمكننا القول بذلك الى أبعد الحدود دون أن نتقيد

باعطاء تقدير نقدي متكامل لأعماله . أن مثل هذا التقدير يكون سابقا لأوانه نوعا ما الآن ، ويكفينا ان نعطي تحليلا ووصفا لصفات هذه الأعمال - وهكذا يتضح أنه لو كان كافكا يضطرنا الى الاحساس باواصر الصلة بيننا وبينه وبالتماثل القوى القلق . فان ذلك يرجع الى الصفة القوية التي يتسم بها شعوره بتجربة الضياع الانساني ، بالغربة والاثم والقلق ، وهي تجربة تزداد تسلطا في العصر الحديث .

ولا مراء في ان كافكا واحد من أكثر الفنانين الادبيين عصابية ، وهذا ما يفسر الوعيد المحسوس لرمزيته التصورية وابتعاده الشديد عن أنماط الخيال الأدبي المحددة المتعارف عليها - ورغم وضوح حقيقة عصابية كافكا ، فانها تمثل للذهن غير الأدبي خطرا ، ان لم يكن اغراء مبتذلا . لأن هذا الذهن يسرع الى تشويش الحقائق الجلية بالأحكام والتقييمات النقدية ، وليس هناك خطر أعظم من ذلك في تناولنا للفن الأدبي . وحتى نتجنب هذا الخطأ الشائع يجب فوق كل شيء ادراك أن كافكا شيء أكثر من فنان عصابي وحسب ، انه كذلك فنان يكتب عن العصابية ، أو بمعنى آخر ينجح في تجسيم حالات العقل التي يتصف بها العصابيون ، من خلال وسائل الخيال . ويصل عن طريق ذلك الى ادماج عالمه الخاص في العالم الذي نعيش جميعا فيه . وحين تتم هذه العملية ، يكون الكاتب الخلاق قد أدى العملية الأساسية التي يكمن فيها سر انتصاره كفنان ان لم يكن كانسان . ويكون بذلك قد حرر نفسه من شيطانه ومن حمله الشخصي ويحولنا بذلك الى شركاء له في نفس الشيء . ونحكم اشتراكنا مع المؤلف لا يكون لنا نحن القراء سبب طبيعي للشكوى . وقد تكون العصابية هي الباعث أو الدافع ، ولكن الأعمال الأدبية هي النتيجة - وفوق ذلك ، فان الكاتب الخلاق هو الشخص الأخير الذي يمكن أن نضربه مثالا في تمييزنا السوي من غير السوي ، فمع كل ما يمكن أن يفعله العالم النفسي من مثل هذا التمييز الفج المفيد ، لا يمكن للفنان أن يلتفت اليه دون أن يقمع في نفسه احساسه بالحياة في ذروة تماسكها وتشعبها .

وقد سبق للروائي الانجليزي « جراهام جرين » أن أدلى بملاحظة مضمونها أن كل كاتب خلاق جدير باهتمامنا ، كل كاتب يمكن أن نطلق عليه لقب شاعر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، ان هو الا ضحية « هو رجل تسلط عليه شعور ما » . وكانت الفكرة التي تسلطت على عقل كافكا احساس حاد بالقصور والفشل والاثم ، اثم لا يرجع الى ذنب ارتكبه أو عمل تركه ناقصا ، بل اثم يكمن في أعماق كيانه الداخلي ، وقد كتب كافكا مرة في دفتر ملاحظاته « ان الحالة التي نجد أنفسنا عليها حالة آثمة ، ومستقلة تمام الاستقلال عن الاثم ذاته » « ومفتاح « المحاكمة » هو ان فكرتنا عن الزمن هي الشيء الوحيد الذي يجعلنا نتصور وجود يوم للدينونة ونطلق عليه هذا الاسم ، وما هو في الحقيقة الا محكمة تعقد جلساتها بصفة مستمرة » . وفي نفس محيط هذا التفكير تبرز الصورة الفكرية التالية « تلعب كلاب الصيد لاهية في الفناء . ولكن الفريسة لن تفلت من يدها رغم ذلك مهما كانت سرعة جريها بين الغابات » . والتطابق بين الانسان يقع هنا مع الفريسة ومع كلاب الصيد كذلك باعتبارها ترمز لتطلع الفريسة الى عقاب النفس ، والى رغبتها الدفينة في أن يتم تضييق الخناق عليها وأن تؤذى وتمزق تمزيقا حتى يتم تكفيرها

عن الأم التي يغمرها من الرأس الى القدم . وفي هذه الجملة القصيرة عن الفريسة والكلاب نكتشف خلاصة القصة الكافكية الأصيلة . موضوع المسلطات . النواة القصصية التي تتعلق بضحية القوة الغاشمة . الموضوع الذي يعود اليه كافكا من آن لآخر آخذا في تنويع وتعقيد بنائه بثراء عجيب ، مقيما على أساس بسيط كهذا صرح بناء شامخ ، مثل أسطورة القائد المغرور في قصة « معسكر الاعتقال » ، وأسطورة القانون في « المحاكمة » ، وأسطورة البيروقراطية السماوية في « القلعة » .

ومع ذلك يجب الا تقودنا بساطة النواة القصصية عند كافكا الى اهمال الصفات التي تجعله واحدا من أشد الشخصيات العاريا في الأدب العالمي . فاذا تحدثنا عنه باعتباره مؤلفا لأليجوريات دينية فان ذلك لن يفيدنا في شيء ، فعلى خلاف الأليجوريين الدينيين أمثال دانتي وبنيان ، لا يعتمد كافكا في كتاباته على المنطق المحدد لأحد الأنظمة الدينية المتعارف عليها ، ولا يفترض طريقته الخلاقة وجود أي معرفة خارج الذات . وعلى هذا فهو ليس بالأليجوري على أي نحو مقبول ، بل الأصح انه مجدد مغرق في الفردية الى درجة لا يمكن معها وضعه في تصنيف من التصنيفات المألوفة . وكذلك فان الصعوبة التي تواجهنا في فهمه تختلف في مستواها عن تلك التي تصادفنا عند قراءة أعمال روائي مثل جيمس جويس مثلا ، فبينما تكمن غموض الأخير في طرق الأساليب البراقة التي تشكل بها مادته ، وفي تصميمات بنائه القصصي المتشابكة ، فان الذي يحيرنا في كافكا هو المعنى المقصود فقط . ويمكن مقارنة كافكا بجويس من ناحية اللغة والبناء ، ورغم ذلك فان رواياته الكاملة قد حيرت كثيرا من القراء . وتزول هذه الحيرة لو اننا تعلمنا أن نصغي بانتباه الى نغماته التي يعزف عليها وأن نألف الحرية الكاملة التي تسمح بها بعض التقاليد الروائية حين يناسب غرضه الرمزي هذا البند . وعلى هذا ، فاننا حين نطالع الجملة الأولى من قصته « المسخ » التي تقول : « استيقظ الموظف (جريجور سامسا) في صباح أحد الأيام ليجد نفسه قد تحول الى حشرة ضخمة » . نخطىء لو تصورنا أن كافكا يقصد عن طريق هذه الصورة الحرفية أن يشير بإصبع الاتهام الى توأني الطبيعة ، بل يجدر القول بأنه يبهم التقليد الذي يدعو الى مراعاة الأساليب الطبيعية عند كتابة القصص . وهو بعد أن يبعد عن هذا التقليد في الجملة الأولى من القصة ، يطورها من هذه النقطة بطريقة منطقية واقعية . وان مسخ الموظف هو رمز مركب لغربته عن الحالة الانسانية . رمز ليقظته على رعب وجوده الخامل الميت . على الامتعاض البائس الذي يكمن في لا شعوره ، حيث تلقى الرغبة التي يحس بها في أبعاد أبيه والاحلال محله في محيط العائلة معوقات تنجم عن حاجته الى معاناة عقاب قاس على رغبته المحرمة تلك .

وهناك نوع آخر من الرمزية به نسبة أقل كثيرا من الاستعمالات النفسية ويوجد في قصص مثل « سور الصين العظيم » . ما هو هذا السور العظيم ؟ انه أيضا رمز مركب للتسامي الانساني ، للتحقيق الدنيوي للذات ولمحاولة بني الانسان الحصول على مساعدة القوى الغيبية . ولكن .... لماذا شيد السور بهذه الطريقة المنفصلة حتى انه يسمح للمتجولين في الشمال أن يتسللوا

خلال المعاهد ؟ والخوف هو ان طبيعة الانسان لا يمكنه من انجاز شيء سوى أهداف محدودة ، وليس بامكانه فهم « الكل » ، ورؤياه متقطعة غير متواصلة كما أن أمله لا يمكن أن يكون تاما ، ولا يستطيع تحقيق أهدافه الا بطريقة متقطعة جزئية . وليس من شك في أن ما يسبب تشييد السور في النهاية بهذا الشكل المنفصل هو « الأمر العلوي » ، ورغم ذلك فان المجادلة في قرارات هذا الأمر العلوي لا تجد شيئا على الاطلاق . وليس سبب ذلك أن مثل تلك المجادلة تعد كفرا في حد ذاتها ، بل لأنها تصبح على المدى الطويل عبثا لا طائل من ورائه . وفي هذا المجال لا يستطيع المنطق الا أن يعودنا الى نقطة معينة ، وما هناك من جواب وراء ذلك سوى في الرمز الذي قدمه كافكا في أقصة للنهر ابان الربيع . ومع مضي حوادث القصة يتحول موضوع السور بطريقة نامية حية الى سلسلة من التأملات الشعرية حول العلاقة بين أهل الصين والبلاط الملكي في بكين ، أي بين الله والانسان . وبينما يتمثل ابتعاد الاله في قصته « كلب يبحث » كابتعاد في الزمن ، فان الصور في قصة سور الصين العظيم تتعلق في معظمها بالمكان ، فبكين العاصمة بعيدة جدا عن القرويين الذين يعيشون في الجنوب حتى أنهم لا يكادون يتصورون وجودها . وهم يتعبدون لملوك ماتت منذ زمن بعيد ، ولا تترامى الأنباء التي تصل من القصر الملكي الى أسماعهم سوى مهملة باطلة المفعول . وينسب عجز الصينيين عن امتلاك امبراطورهم في واقع حي واحد ، كانعكاس لفكرة الله كما يعرفه الانسان الحديث . وهي فكرة غير محددة ، غامضة ، وفوق كل شيء فكرة عتيقة . فالانسان الآن لا يدرك كنه القوى التي تحكم حياته ، فاذا عرف شيئا عن الالوهية فهي معرفة تاريخية خالصة .

والشجار بين المفسرين الدينيين والمفسرين النفسيين لأدب كافكا ليس بذي أهمية عظيمة ، لأن عمله يجمع من المعاني ما يكفي لأن يدعم جزءا من الحقائق التي تحوم بها كلا من هاتين المدرستين . وعلى هذا يمكن تفسير حادثة الأب الذي يحكم على ابنه بالموت غرقا في قصة « الحكم » على ضوء فكرة فرويد عن الأب الطاغية ، وفي نفس الوقت يمكن تفسيره بأنه الاله القصاص وقد هب في غضب ليحطم الوهم الذي يبني للانسان في اقامة كفاية ذاتية في هذه الدنيا . وليس هناك أي تعارض بين هذين التفسيرين في أساسهما ، فهما أولا ليسا متضادين وثانيا فان فراسنا للقصة وفهمنا لها ، كما أنها تعتمد على وجهة نظر المؤلف ، فهي تعتمد في نفس القدر على وجهة نظرنا الخاصة في حدود معينة . وقد كان في شخصية كافكا عنصر من الخضوع الجوهري يمنعه من الشروع في اثبات أي اتجاه معروف عن الحياة أو أي فكرة عنها . وقال هذا بوضوح في احدى مأثوراته التي كتبها عن نفسه بضمير الغائب « انه لا يثبت الا نفسه ، وبرهانه الوحيد هو ذاته . ولذلك فان خصومه قد تغلبوا عليه في الحال ، ليس عن طريق دحضه (فهو ممن لا يمكن دحضهم) ولكن عن طريق اثبات ذواتهم » .

أما أن كافكا كان رجلا ذا مزاج ديني فهذا ما لا أشك فيه أبدا . فمع أنه قد خلق صورا مبررة في الفشل والاحباط الانساني ، ويميل الى الشعور بأنه سجين في هذه الدنيا ، وتعذبه الكآبة والعجز والضعف والخيالات المحمومة التي تراوده

السجن ، فانه لم يتخل عن نفسه في مصيرية الوجود وروحيته في « القهـــار » ، كما أنه فقد الثقة في مجهوداته الأدبية لأنه كان يريد لكتاباته أن تصل الى القوة التي تتمكن معها من رفع العالم الى المملكة « النقية ، الحقة ، الثابتة » . ومع ذلك فليس هناك شيء في أوراقه الخاصة أو في رواياته يجيز الزعم القائل بأنه كان يعتقد في إله خاص به يوافق على النظم الجامدة التي تتصل بالدين الرسمي — وحتى الخطيئة الأولى ، وهي العقيدة القريبة من مركز أعماله ، كان يفسرها في تعبير بأن أساسها هو « الشكوى التي يرددها الانسان ولا يكف عن ترديدها بأن سوءا قد ارتكب في حقه » وان الخطيئة الأولى قد وقع وزرها عليه » . وينظر العالم الديني الى هذا القول على أنه مجرد خرافة ، خرافة رقيقة تتهم نفسها ، ولكنه خرافة على أي حال . وقد أشار الناقد الألماني « فرانز بلي » الى كافكا ـ وكان من معارفه الشخصيين ـ باعتباره « جاحدا لأنه لا يعتقد فيه أحد » . كانت تقواه متناقضة ، مستثناة من التعريفات والتصنيفات المحددة ، بعيدة كل البعد عن الساكن والتقليدي ، ترفض السلوى التي يقدمها الدين في ايمان ، وتسير رغم ذلك على شـــق طريقها الى ايمان « كالمقصـــلة في ثقله وفي خفته » ، تقوى لا تجد متنفسا لها في الأفكار العامة ولا في الفكر المنطقي بل في لغة الفن فقط ، تلك اللغة التي تقدم كل شيء ، ثم لا تزعم شيئا ولا تؤكد شيئا ولا تثبت شيئا في نفس الوقت .

ولد كافكا في عام ١٨٨٣ من أبوين يهوديين من عائلة متوسطة . ويبدو أنه قد فقد ثقته بنفسه في مطلع حياته ، واستبدل بها كما يقول « شعور لا حد له بالاثم » . وقد وسمت حالات الضياع والفشل وفكرة عدم وجود حل لأبسط المشكلات الانسانية ، وسمت فترة شبابه بالحزن والهمت فيه بعد ذلك . ويقف أبوه في مركز حياته كشخصية تتفق تمام الاتفاق مع فكرة « فرويد » عن الرعب المتمثل في « الأب الأول » . كان أبوه نشطا ، صلفا ، متقلبا ، ناجحا ، محترما ، وكان يتعرض بالسخرية لميول ابنه غير العملية وتجوالاته الروحية دون أن يقصد سوءا من وراء تلك السخرية بل هي طبيعته أملت ذلك عليه . وكانت الأم رغم شغفها على ابنها مستغرقة بكل عواطفها في أمور زوجها لدرجة جعلتها عاجزة عن أن تتخذ لها دورا مستقلا . وهكذا تعرض فرانز الصغير لتطرفات العزلة واستبطان النفس ، تلك التطرفات التي كانت تلقى نفسها دوما عند التفكير في التكامل عن طريق الزواج وانجاب الأطفال وممارسة أعباء وظيفة محترمة (مهنة حقة .... المهنة المناسبة) وكان تأثير أبيه عليه ظاهرا لدرجة جعلته يتعثر في حديثه أمامه رغم أنه يتحدث عادة بطلاقة فائقة . وقد كتب في خطاب وجهه الى والده بعد ذلك : « لقد بدأت تتخذ تلك الصفة الغامضة التي يتصف بها جميع الطغاة ، الذين يعتمدون على تفوقهم على شخصياتهم وليس على الحق » . ومن الواضح أن مصدر فكرة السلطة التي تشيع في معظم أعماله يرجع الى موقفه المتناقض تجاه والده ، موقف يشتمل على نفور خاص وشعور بالمماثلة أيضا . ونحن نرى البطل في أعمال كافكا القصصية الرئيسية والذي تظهر فيه عناصر من شخصيته الذاتية ، نراه دوما وقد قهرته قوى ما فوق الطبيعة ، تلك القوى التي تجد دائما ما يبررها ويعلي من شـــأنها حتى ولو ظهرت في ثياب بيروقراطية طاغية متوعدة . ويحكي ماكس برود ، صديق كافكا الحميم ومؤرخ حياته الذي نشر كتاباته

بعد وفاته . يحكى انه حاول ان يدلل لرفيقه على خطأ احساسه الذاتي بالحقارة وخطأ مغالاته المزمنة في الاعلاء من شأن والده · ولكن هذه الأحاديث كانت تذهب ادراج الريح لأن كافكا كان يعلل بسيل من الحجج يصد بها أقوال صديقه ويفندها · وقد تحقق ماكس برود أنه لا يمكن لامرىء أن يتساءل عما كان يحدى كافكا قبول ابيه له الا من وجهة نظر احد الغرباء البعيدين عن كافكا واحساساته · فقد كان واضحا ان حاجته الى هذا القبول تمثل عنده شعورا فطريا دام الى آخر أيام حياته .

و في عام ١٩٠٦ حصل كافكا على اجازة القانون من الجامعة الالمانية في براغ ووجد عملا بعد ذلك في شركة للتأمين ضد الحوادث · غير أن اهتماماته الحقيقية كانت تتمثل في ميدان الكتابة ، وقد مارس هذا العمل الاخير بكل حماس أخلاقي ، معتبرا اياه بدلا مقدسا للطاقة الانسانية وخطوة للاتصال بسمى الانسان ، وانعكاسا باهرا للادراك الديني · ورغم ذلك فان الكتابة لم تكن لتقيم أوده ، فبالاضافة الى اعتراضه من ناحية المبدأ على تحويل الموهبة الأدبية الى مصدر للمنفعة المادية ، كانت أمامه عقبات أخرى في هذا السبيل · وكان يكتب في سرعة خاصة به ، يملؤه سخط مترهج · وكانت تتملكه في نفس الوقت حاجة ملحة لأن يقف على قدميه ، لأن يستقل سريعا عن عائلته · ومع ذلك فقد عملت وظيفته في شركة التأمين على تفكك شخصيته للتناقض التام بينها وبين مهنة الكتابة ·

ويكتب كافكا في خطاباته عن الأدب باعتباره أمله الوحيد في السعادة وتحقيق الذات · وعندما كان يتحدث عن الحالات التي تشبه حالات الغيبوبة والتي تجعله يقترب من الاحساسات الانسانية العادية ، يضيف بأن هذه الحالات كان ينقصها هدوء الالهام مما يجعلها لا تساعد على الكتابة الحسنة وهو يتحدث عن نفسه على انه سبيل خلق « عقيدة سرية جديدة » « كابالا » غير ان اجاباته عن معنى هذه العقيدة كانت مشتتة متناقضة · (وقد قال « برود » بحق ان اصراره هذا كان اصرارا أخلاقيا وليس فكريا) ونحن نقرأ في يومياته · « انني أمثل العنصر السلبي للعصر الذي أعيش فيه . . . وبخلاف كيركجارد لم تقدني يد المسيحية في حياتي ، ولا أنا تعلقت كالصهيونيين بآخر أطراف اردية اليهود الحالية » · ويبدو أن الشائبة الوحيدة في علاقة كافكا بماكس برود كان منبعها برود كافكا تجاه الصهيونية . وكان قد كتب مرة · « ماذا يجمع بيني وبين اليهود في الوقت الذي لا يكاد يوجد هناك ما يجمعني ونفسي ؟ » .

وكان عام ١٩١٢ عاما مصيريا في حياته . فقد قابل فيليس ب . تلك الفتاة التي جاءت من برلين والتي كان يرغب في الزواج منها ولكن الظروف أجبرته على الابتعاد عنها ، وقد عانى شخصا طاغيا من جراء فسخ خطوبته لها مرتين — كان يشعر أن الزواج عمل مستحيل بالنسبة لرجل مقطوع الصلة في مثل ظروفه . رجل يعتقد الاستقلال الاجتماعي والعوائق الآمن في حياته · وقد شهدت هذه السنة كذلك التقاء مقاصده الأدبية مع منهجه المستمر في سبر غور نفسه الداخلية مما أتاح له أن يتقدم ونبدأ بخطى ثابتة في عمله · ولو قارنا ما كتبه ابان خريف هذا العام بكل ما كتبه قبل ذلك لبدت هذه الأخيرة مجرد تخطيطات ناقصة · وفي ليلة ٢٢ سبتمبر من نفس هذا الخريف كتب « الحكم » في جلسة واحدة · وقد قال بعد ذلك انه حمل

عبء وزره على ظهره أكثر من مرة فى خلال هذه الفترة التى امتدت من العاشرة مساء حتى السادسة من صباح اليوم التالى . والحكم هى أول قصة كافكية تظهر فيها سمات أدبه المعروفة كما أنها أول قصة سبر فيها المؤلف موضوع الصراع بين الأب والابن الى الأعماق . وفى نفس الشهر أو الشهر الذى تلاه ، كتب كافكا الفصل الافتتاحى الطويل لروايته الأولى « امريكا » ، وفى نوفمبر أكمل أعظم قصصه : « المسخ » ويحقق فيها تأثيرا فعالا عن طريق تناوله الكامل للتفصيلات الواقعية التى تساند وتدعم الرؤيا الكئيبة لموضوعاته القصصية . وهذه القصة تجسد حتى لصفتى الضرورة والتطرف ، تجسيد لاحساس امرىء حتم الوجود على أعماقه وليس أمامه الا الانتماء الى هذا الوجود . ويمس هذا كله شعورنا حين نقرؤه فى أعمال كافكا لأنه يشتمل على المنهج وعلى المضمون ، على الطلب وعلى الاستجابة ، على الهدف وعلى الطريق فى آن واحد.وعن طريق هذه الصفة «الوجودية» فقط يحجم كافكا عن تحسين عالمه أمامنا ، وينقل نداء الحقيقة الذى لا يخطىء الى عناصر هذا العالم التى لم تكن لتبدو بدونه سوى متاح غريب ضال . ويمكن لى ان اقول ان كافكا قد حقق تماما ولاول مرة فكرته الخاصة عن الكتابة فى قصته « المسخ » ، وهى فكرة تتصف بباطنية والحاح لا يوصفان . وقبل كتابة هذه القصة بفترة طويلة ، حاول كافكا أن يشرح معنى الكتابة كما يتراءى له ، فقال فى خطاب الى صديقه « أوسكار بولاك » : « ان الكتب التى نحتاج اليها هى تلك التى تؤثر فينا تأثير الكارثة ، تلك التى تجعلنا نقاسى نفس المعاناة التى نمر بها حين يموت لنا أحد الأقارب الذين نحبهم أكثر من أنفسنا ، تلك التى تجعلنا نشعر كأننا على شفا الانتحار أو تائهين فى غابة بعيدة عن العمران ، وهكذا يجب على الكتاب أن يعمل عمل الفأس فى البحر المتجمد داخل نفوسنا » .

وفى أكتوبر من نفس العام ، كتب « ماكس برود » فى يومياته : « ان كافكا فى حالة من النشوة ، قائما يكتب طوال الليل ... » وأيضا « .... ان كافكا تنتابه حالة غريبة من النشوة » . وتتضمن هذه النشوة شيئا أكثر من الاعلاء وشعور الحرية الذى يمر به الكاتب عادة حين يتقدم فى عمله الفنى تقدما محسوسا . ويستبين من الطبيعة الاكراهية لقصتى الحكم والمسخ ومن تعليقات كافكا عليهما فى يومياته أن هاتين القصتين كانتا الفأس الذى حطم بحر الثلج بداخل نفسه ، أو بمعنى آخر ، ان عملية خلقهما تضمنت التعادل طبقات من مادة مكبوتة لم يكن فى الامكان ادراكها قبل هذا الوقت . ويبدو كما لو أن المعاناة العصابية فى كافكا والفنان فيه تعارفا واتفقا فى رواياته التى تتميز بالحركة النفسية فى سبيل الحفاظ على الحياة الثمينة. ويمكن للمرء فى دقة أن يقول عن مثل هذه الأشياء مع « ييتس » انه كلما كان الخلق لا شعوريا كلما كان أكثر قوة .

وتقوم رواية امريكا ، التى بدأ كافكا فى كتابتها فى تلك الفترة ، على مبعدة من أعماله الأخرى ، فهى تستبعد ذلك العنصر غير الطبيعى ، وليس فيها ذلك الاستدعاء للقوى الخفية أو أى تصوير ملغز للعالم المعروف المألوف ، وهو الأسلوب الذى اتبعه كافكا بعد ذلك من أجل تطعيم رواياته بعنصرى اللامعقول والابهام . وهى الرواية

الوحيدة من بين أعمال كافكا التي أطلق الفنان فيها العنان لنزعته نحو كتابة الملهاة، ورغم ذلك فانه لم يقصد من وراء كتابتها عرض نقائص معينة بل تصوير الموقف الانساني المتميز . وقد كتب كافكا في دفتر ملاحظاته « لو أن حوادث الملهاة نظمت تنظيما متناسقا لتحولت الى حقيقة واقعية » .

ويمكن لهذه العبارة أن تكون شعارا للرواية البكاريسكية أمريكا » . وهي تحكي مغامرات صبي في السادسة عشرة من عمره ــ كارل روسمان ــ من أهالي براغ ، في مدن الولايات المتحدة التي طغت عليها الآلية . ولم يكن كافكا قد رأى الولايات المتحدة قط عند كتابته لهذه الرواية ، بل انه كون صورة محددة عنها في ذهنه وحسب .

وكان كافكا يميل بحكم نوبات الضياع والفشل التي انتابته الى الاطلاع في دهشة واعجاب زائد على كل أمثلة الارادة النامة ، على قدرة الانسان على اكتشاف مهنته الحقيقية ، على امكانه تحقيق التكامل مع مجتمعه ، هذا المجتمع الذي كان يربط كافكا بأعظم القيم والذي اعتقد انه يكمن بعيدا عن متناول يده . ويمكن مطابقة الأسى الذي كان يعمره بصفة دائمة بالذي شعر به بطل قصة « هرتورن » مكتب المحاماة ، الذي لم يكن يكف عن الصياح قائلا : « أريد مكاني ، مكاني الشخصي مجال المناسب ، أريد عملي الذي خلقتني الطبيعة لأؤديه حينما شكلتني على هذا النحو والذي بحثت عنه طوال حياتي عبثا ! » ولهذا السبب كان « بنيامين فرانكلين » من بين الشخصيات التاريخية المحببة عند كافكا ، وهو الذي نجح في كل ما تولى من الأمور ، كما أن كتاب « السيرة الذاتية » لفرانكلين واحد من مصادر رواية « أمريكا » ، ومع ذلك فلا يظن أحد أن كافكا قد فتن بفكرة ريتشارد المسكين عن نفسه أو بفلسفته العامة ، ولكنه اهتم من نموذج الطبيعة الأمريكية هذا بعنصر القدر الذي لا يمكن تفسيره ، ذلك العنصر الذي ظهر على شكل ايحائي في هذا العمل ، وأغلب الظن أنه قرأ توصيات « ريتشارد المسكين » التي تحث فيها على اتباع الفضيلة ، وقائمة الأعمال التي أعدها عن سكينة النفس والاعتدال في النفقة والاعتدال في الطباع ، والاعتدال في كل شيء ، وما شابه ذلك من الموضوعات كما يقرأ المرء سفرا عن الاستراتيجية . قرأ كافكا هذه الأعمال ، وفسر هذه الأقوال الحكيمة الكئيبة على أنها خطوات في تلك اللعبة المتشابكة التي يسعى فيها المرء لنيل الحظوة عند القوى المجهولة التي تسود قوانينها كل شيء رغم أن مرماها ومغزاها غير معروفين ولا يمكن معرفتهما .

وكان ما جذب كافكا نحو فرانكلين ذلك المظهر الذي يجعله شبيها بأوليس وقد تصور أن لأمريكا لدى فرانكلين مثل البحر الأبيض لدى البطل الأسطوري . وكان يعتقد أن الأمريكيين لم يرسموا الابتسامة على شفاههم الا عن طريق الحماية التي كفلها لهم أبعاد العالم الجديد .

ويتسم بطل « أمريكا » (كارل روسمان) بالبراءة حقا ، وهو في هذا المجال يختلف اختلافا جوهريا عن « ك » بطل روايتي « المحاكمة » و « القلعة » ، ... ك

يحاول مسكه الأم بصريقة سريعية في مجتمعها مدبرا في تلك تسبيح بعض ويحاول الانتقام من الكوارث التي نزلت به ، ويجاهد في سبيل اطلاقه سراحه باثبات براءته من ارتكاب أي جرم عن طريق اجراءات منطقية . أما كارل فانه يعاني من الاضطهاد دون أن يفكر في الانتقام أو يعكف على التفكير طويلا في الاساءات التي ارتكبت في حقه . ولم ينبه بكلمة احتجاج حين طرده عمه الثرى بعاد من منزله دون أى سبب على الاطلاق ، بل بدأ يلائم نفسه في هدوء مع الموقف الجديد . وهو ليس شخصية ذائبة ؛ بل أن طاقته من ذلك النوع الحنون الذى يتسلل في أعمق المسالك في وداعة ولطف .

ويصيب كارل شيئا من سخرية كافكا ، فقد وقع في أحابيل سلسلة من الحوادث والأخطاء وسوء الفهم دقيقة في ظروفها سحرية في تتابعها . وأحاط حسن الحظ بخطواته الأولى في أمريكا . تلك البلد الذى لم يتعرف على التعصب عن آليتها البيروقراطية الهائلة المحيرة عن قرب . غير أنه لم تمض سوى شهور قليلة حتى دهمته الكوارث فجأة واضطرته الى البحث عن عمل في رفقه آثنين من اللصوص العاطلين « ديلامارش » و « روبنسون » . وبعد محاولات عدة ، يمشي صداقة مع امرأة لها روح آثينا الهة الصيد في صورة مديرة أحد الفنادق . ولكنه يفقد منزلته تلك أيضا حين يمده رفيقاه اللصان عن عمله ليرغماه بعد ذلك على الالتحاق بخدمة « بروبيلدا » . وهي امرأة تشبه الساحرة « كيرك » في الجو الذى تعيش فيه وقد دفعت التصبي الى شهوانية قذرة (واني أعتقد أن الفصل السابع « الملاذ » الذى يصف المطاردة المضحكة بين كارل ورجل البوليس ، وملاقاته « بروبيلدا » العريضة والاستعراض الانتحاري ، وحديثه مع الطالب الذى يتغدى على مشروب القهوة ، لهو عندى من أحسن ما كتب في الروايات الحديثة) . وفي النهاية يفر كارل من منزل بروبيلدا ليجد عملا في مسرح أوكلاهوما الطبيعي . وهو أحد المشروعات الكريمة الخيالية يفتح للعاطلين الباب الى جناته الرحبة حيث يحصلون على عمل ويتم الترفيه بينهم وبين المقاصد الخفية للقوى التي تحكم حياة الانسان .

ولم يحاول كافكا أن يقدم فكرة حقيقية عن امريكا ، فتفاصيله عنها لا تطابق الحقيقة بالمرة ، غير أن الصورة في مجموعها تكون حقيقة رمزية عريضة . واذا كانت هذه الرواية من وجهتها الواضحة مجرد محاكاة ساخرة لحياة « ريتشارد المسكين » (أى لحياة الأمريكيين عموما) فهي من وجهتها الأدبية تستمد شيئا من أدب ديكنز . « فدافيد كوبرفيلد » الولد الطيب الذى يستخدم ذكاءه في أوقات المحن والتجارب للاستفادة الى أقصى حد مستطاع من الفضيلة التي يتحلى بها ماهو الا طراز لكارل بطل « امريكا » . ولكن تقليد رواية ديكنز لهذه الطريقة يعتبر تناولا هزليا لها وهو شبيه باستخدام جويس للملحمة هوميروس في روايته « يوليسيس » .

وان المرء ليعتقد في رواية « امريكا » ذلك المضمون العميق الذى يميز أعمال كافكا الاخرى . ومن الواضح أن خياله لم يدعم تلك المجهودات التي بذلت في القصة للسير بحياة أحد الشبان الى نهاية سعيدة ، بل كان خياله أقرب الى القلاع والمحاكم المخيفة حيث يطوف ك . بحثا عن العدالة حتى يكتشف في النهاية أن العدالة تقدر

ماض حتمية فانها ليست بذات معنى . فرواية « امريكا » ادنى تندرج تحت ما يمكن أن نطلق عليه الجانب النفسي لفن كافكا . وتبدأ حركة هذا الفن من علم النفس الى علم الأساطير التجريبي (من الملاءمة الفورية بين حالات شخصية داخلية الى عرض هذه الحالات على العالم الخارجي) وهكذا فان الأساس الصحيح الذى تقوم عليه أعماله يتجسم فى البداية ، كما يحدث فى « الحكم » و « المسخ » ، فى شخصية أب « حقيقى » ، أب يمكن بسهولة مطابقته بفكرة فرويد عن « الرومانسية العائلية » بينما لم يعد فى الروايات التالية الأكثر طولا للأب شخصية يمكن التعرف عليها فى الحياة المألوفة ، فقد تم اقصاؤه عن مجال الأسرة ، وأصبح فكرة عامة كقوة من القوى الرسمية ، مقدسا ، قصيا ، خفيا ، مثل القانون أو المحكمة أو مثل طبقات الموظفين الذين يقطنون القلعة

وفيما يختص بهذا الخط من التطور ، يمكن اعتبار قصة مستعمرة العقاب قصة انتقالية . وقد كتبها كافكا فى نوفمبر ١٩١٤ حين بدأ العمل فعلا فى رواية « المحاكمة » . وتتضح الاشارات الدينية فى هذه القصة أكثر مما سبقها من القصص ربما لانها تبين تأثير كيركجارد ، الذى اكتشفه كافكا لأول مرة فى عام ١٩١٣ . ويستدعى القارىء من شخصية القائد العجوز الذى تسمت ذكراه المخيفة فى قصة مستعمرة العقاب بعض السمات الفردية التى يتصف بها الأب « الحقيقى » ، وفى نفس الوقت تتخذ هذه الشخصية الشكل الأسطورى الملغز الذى يتخذه رمز السلطة فى روايات كافكا التالية .

وعلى المدى الطويل ، لم تفلح محاولات كافكا السابقة من سبر غور حياته النفسية فى أن تنقذه من مخاوفه التى دمرت أعصابه ولا من شعوره بالاحتقار الذاتى ودوام على شجاره مع نفسه ، وعلى خططه التى وضعها لعقاب هذه النفس ، بل انه فكر فى الانتحار ، « لقد حمل بلزاك » عصا مكتوب عليها هذا الشعار « انني احطم اى عقبة » ولكن شعارى هو « كل عقبة تحطمنى » ، وقد أثر تذبذبه المستمر بين الكتابة وبين عمله على صحته كثيرا ، فعانى من نوبات الصداع والأرق ، حتى هاجمه أخيرا مرض السل واضطره الى قضاء عدة سنوات فى المصحات . وقد اعتبر كافكا مرضه حتمية نفسية « لقد تآمرت نفسى مع رئتى من وراء ظهرى . » ولم يتحقق من حاجته الى الاستقلال بحياته الا فى عام ١٩٢٣ حين قابل « دورا دايمانت » ــ وهى فتاة نشأت فى عائله محافظة فى بولندا ــ ووجد نفسه فى حالة طيبة تسمح له بالانتقال معها الى برلين . غير أن الوقت كان قد فات لتعويض ما فقده من سنوات المرض والشقاء . وفى يونيو ١٩٢٤ مات كافكا فى احدى المستشفيات بالقرب من فيينا من داء السل الحنجرة ، وكان عمره واحد وأربعون عاما .

ولم ينشر كافكا ابان حياته سوى بعض اعماله القصيرة كما أنه لم يكمل أيا من رواياته الثلاث الى نهايتها .

وقد كتب قبل وفاته الى « ماكس برود » طالبا منه احراق جميع المخطوطات التى خلفها وراءه . ولحسن الحظ أخذ هذا الصديق على عاتقه مسئولية اغفال هذه الوصية الاخيرة اليائسة .